المبحث الثاني
المعايير

اتفق أغلب الباحثين على تقسيم المعايير، التي اعتمد عليها المعجميون في جمع المادة اللغوية على قسمين، احدهما: زماني، والاخر: مكاني. ومنهم من جعلها أربعة، اولها: قبلي وثانيها: قبلي مكاني، وثالثها: زماني، ورابعها: زماني مكاني[1]. ويلاحظ ان هذا الاخير يعتمد في اساسه على التقسيم الاول.

اولا: المعيار الزمني

وفيه يحكم على صحة المادة اللغوية اعتمادا على مبدأ المعاصرة، وقد أشار أحد الباحثين إلى أن هذا المعيار قد روعي في الشعر وحده، من غير أن يكون معه معيار آخر أي أن العلماء لم يقسموا الشعر على أساس القبائل، وهو ما يستند الى المعيار المكاني، بل ارتضوا كل ما نظم من شعر، في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية[2].

وقد ارتكز هذا المعيار على أساس تقسيم الشعراء على طبقات: جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، ومولدين[3].واتفق الجمهور على صحة الاحتجاج بشعر الطبقتين الاولى والثانية،أما الطبقة الثالثة فقد حصل خلاف في صحة الاحتجاج بشعرائها، أمثال الفرزدق (١١٠هـ)،وذي الرمة (١١٧هـ)، والكميت (١٢٦هـ)،فالرواة الاوائل منعوا الاحتجاج

(١) ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة: ٧٥ – ٨٤، للدكتور محمد حسن حسن جبل،دار الفكر العربي، القاهرة.
(٢) ينظر: فصول في فقه اللغة : ١٠٣.
(٣) ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة : ٧٨.

بشعرهم، وعلى رأسهم أبو عمرو بن العلاء، الذي منع الاحتجاج بشعر بعضهم مع اقراره بجودته، فقد قال: ((لقد أحسن هذا المولد، حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولدا بالاضافة إلى شعر الجاهليين والمخضرمين))[1].وقال عنه الاصمعي: ((جلست إليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي، وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فهو من عندهم))[2].

وبعد ابي عمرو جاء الاصمعي، فتزحزح حد الاحتجاج بقدر تأخره عنه، إذ روي عنه انه قال: ختم الشعر بابن ميادة (الرماح بن ابرد ١٤٩هـ)، وإبراهيم بن هرمة [3]. وباولئك حددت نهاية عصر الطبقة الثالثة، وعد الذين عاشوا بعد منتصف القرن الثاني من الطبقة الرابعة (طبقة المولدين)، وعد بشار بن برد أول الشعراء المحدثين[4]. واتفق اغلب علماء اللغة على عدم الاحتجاج بشعراء هذه الطبقة، إلا أن ذلك لم يطبق عمليا في المعجمات كافة، اذ حصلت تجاوزات متعددة، بدأت في كتاب (العين) الذي استشهد فيه بشعر حفص الاموي، وبشار بن برد[5]، وقد ترك ذلك أثره في المعجمات التي لحقته، ففي (الجمهرة) استشهد بشعر للعماني، ولبشار بن برد[6].ومثله ايضا في (ديوان الادب)[7].واستشهد الزمخشري بشعر لأبي تمام (٢٣١ هـ) وغيره من أئمة اللغة ورواتها، فقد رد من سأله، كيف تستشهد في (الكشاف) بشعر ابي تمام؟ قال:اجعل ما ينظمة بمنزلة ما يرويه[8].وقد وصل التجاوز الزمني لعصور الاحتجاج عند الزمخشري إلى ذروته،وعد أول

---

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٩٠/١،لابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجبل، بيروت – لبنان، ١٩٧٢م.

(2) المصدر نفسه : ١/ ٩٠ و٩١.

(3) فوات الوفيات : ٣٥/١، لمحمد بن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـ)، تحقيق: الدكتور احسان عباس، دار الثقافة بيروت– لبنان.

(4) ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة : ٨١.

(5) ينظر: البحث اللغوي عند العرب : ٣٦.

(6) ينظر: الجمهرة : ١٠٩/٢ (جفه) و ١٢/٣(زفل) و ١٢٧/١ (بضبظ).

(7) ينظر: ديوان الادب: ٢٥٦/٢ و ١٠٣/٣ و ١٦٨/٤، للفارابي (٣٥٠هـ)، تحقيق: الدكتور احمد مختار عمر، مراجعة: الدكتور ابراهيم انيس، الهيأة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

(8) البحث اللغوي عند العرب : ٣٦.

من تجاوز المعيار الزمني بشكل واسع، وبشجاعة جعلته يثور على التقاليد التي رأها مجحفة وغير منصفة لمن جاوز الحد الزمني.

وقد أدت تلك الحدود الزمنية، التي وضعها اللغويون الاوائل، الى ظهور مصطلح (المولد) وانتشاره في المعجمات، وهم يريدون به الصيغ والاستعمالات التي أحدثها المولدون[1]، مما لم ترد بها النصوص القديمة، الموثوق بفصاحة قائليها، من الجاهلية الى نهاية القرن الثاني في الامصار، ونهاية القرن الرابع في البوادي.

وقد وصف أحد الباحثين أمر الاحتجاج اعتمادا على مبدأ المعاصرة بأنه ((مسألة نسبية محضة، لا تقوم على أساس علمي متين، فالشعراء الذين عاصروا الطبقة الاولى من اللغويين متقدمون بالنسبة للطبقة الثانية منهم أو الثالثة، والعكس صحيح أيضا، فالشعراء الذين تقدموا في العصر عن اللغويين المتأخرين عاصروا اللغويين الذين كانوا في زمانهم وهكذا))[2].

فالاساس الذي يحكم اللغويين نفسي لا علمي، فهم يغضون النظر عن نتاج الشاعر ومدى إجادته في تحري الصواب، والنسج على منوال العرب في تآليفهم. وقد قرأنا، آنفا،كيف أن ابا عمرو بن العلاء قد اعترف للفرزدق وجرير بأن شعرهما جدير بالرواية لولا تأخر زمنهما بالنسبة الى عصره. وكذلك اعترافه للاخطل (٩٠ هـ) ، بقوله: ((لو أدرك الاخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه احدا))[3].

كل ما سبق يحدونا على القول : ((إن اللغويين لم يكونوا ينظرون في الشعر نفسه وإنما كانوا ينظرون الى قائله، أو عصر قائلة٠٠ ولم يكن للمحدثين من ذنب الا انهم تأخروا عن ذلك العصر السعيد الحظ))[4]. فاصبحت نظرتهم للمحدثين بعيدة عن الموضوعية والنصفة، والاخبار المروية عنهم تؤيد هذا، يزاد على ذلك التعميم الذي لجؤوا اليه في الحكم

---

[1] ينظر: المزهر : ٣٠٤/١.

[2] الدراسات اللغوية عند العرب: ٣٥٧ و ٣٥٨.

[3] الاغاني: ٢٩٥/٨، لابي الفرج الاصفهاني (٣٥٦هـ)، شرحه وكتب هوامشه: الاستاذ سمير جابر، ط١ دار الفكر، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

[4] النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري : ٨٨.

السابق بعدم الفصاحة على جميع الخارجين على الحدود الزمنية التي وضعوها، وهــو حكــم يتجاهل الفارق الفردي في الفصاحة[١].

ومن مظاهر التعميم الاخرى التي ظهرت في عمل علماء اللغة، انهــم ســاووا بــين المستويات اللغوية (الاصوات، والالفاظ (المتن)، والصيغ والتراكيب، والدلالة)[٢]. ولو نظرنا في حقيقة تلك المستويات لمسنا فرقا بينهما من حيث الثبات، فقد أشار ابن جني إلى أن التغيير في المستوى النحوي يكون بدرجة أكبر مما هو في المستوى الدلالي. ويتجسد ذلــك بــذهاب الحركات من كلام العامة، إذ قال: ((إن كلام أهل الحضر مضاه لكلام فصحاء العــرب فــي حروفهم وتآليفهم، إلا انهم اخلوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح))[٣]، وهذا يعني انه يمكــن الاحتجاج بمدلولات الالفاظ على ما استعملها عليه الذين جاوزوا نطق الاحتجاج، مع إمكان أن تخصص من بين هؤلاء من يزكى مستوى نتاجهم ذلك[٤].

ولو وازنا بين النحو من جانب، والمتن والدلالة من جانب آخر لاثبتنا فرقا آخر يمس أساس الاحتجاج، له علاقة بالنمو ووسيلته. فالنحو له حدود ثابتــة مســتنبطة مــن عصــور الاحتجاج. أما اللغة (متنا ودلالة) فهي في حركة دائمة ونمو مستمر، بما يلائم متطلبات الحياة من معان، وتعبيرات جديدة.

وتصحيحا لما تقدم لابد أن نعلق الاحتجاج بمستوى النتاج، أو نخص اللغــة (متنــا ودلالة) بهذا المعيار الجديد، تاركين النحو للمعايير القديمة[٥]. أي ان العمل المعجمي يجب الا يخضع لتلك المعايير التي وضعها العلماء الاوائل، وان يضع مكانها معايير تتخذ من مستوى النتاج أساسا تعتمد عليه.

وقد ظهرت شوائب اخرى في عمل علماء اللغة، تخص الطريقة التي جمعــت بهــا المادة اللغوية، ومنها التشدد الذي تمثل بمحاولات التبكير في تحديــد طبقــة الــذين ســموا

---

[١] ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة: ٩٩ و ١٠٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه : ١٠٠ و ١٠١.
[٣] الخصائص : ٢/٢٩.
[٤] ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة : ١٠٠ و ١٠١.
[٥] ينظر: المصدر نفسه : ١٠١.

(المولدين)، وحصر الاحتجاج في مدة محددة، بغض النظر عن مستوى نتاج تلك الطبقة. فلا ذنب لهؤلاء سوى انهم عاشوا في عصر، وصفه علماء اللغة الاوائل بانه فقير من جهة الفصاحة التي توافرت في العصور التي حددوها. وبعملهم هذا ((اعرضوا عن نتاج مئات ومئات من الشعراء والناثرين، ذوي الحس العربي الاصيل، فحرموا اللغة من ثروة من الاضافات في المفردات والتعبيرات))[١]، التي تتردد في الشعر المحدث، ولا سيما ما قيل في العصر العباسي، الذي يعد العصر الذهبي للحضارة العربية والاسلامية. وهو ما افتقرت إليه معظم المعجمات العربية، ولاسيما القديمة منها، التي عنيت باثبات الالفاظ القديمة بما فيها الغريب والموات[٢]، مما جعلها عاجزة عن بيان التطور التاريخي، الذي تعرضت له الالفاظ على مر العصور، وكأن أصحابها قد جزموا بان اللغة العربية لغة ازلية ثابتة لا تتغير، فأخذوا ينقلون بعضهم عن بعض، بتقيد شديد، ولا سيما المتأخرون[٣].

وقد فرق العلماء بين لغة البدو ولغة الحضر، واخضعوا ذلك للمعيار الزمني،فوقفوا بكلام أهل الحاضرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، وجوزوا الاحتجاج بعربية أهل البادية الى آخر القرن الرابع الهجري. وهم بذلك يقرنون الفصاحة بالبداوة، ويؤكدون هبوط مستواها في الحضر بعد القرن الثاني، وبقاءها عند الفصحاء منهم قبل هذا التاريخ. فقد قال ابو عمرو بن العلاء: ((لم أر قرويين افصح من الحسن والحجاج، وكان لا يبرئهما من اللحن))[٤].

وقد اتخذ احد الباحثين من تلك التفرقة معيارا جديدا قائما بذاته، سماه (المعيار الزمني المكاني). ولا نرى حاجة لفصله عن المعيار الزمني؛ لانه مبني في أساسه على عنصر الزمن، وأشار أيضا إلى ان الاحتجاج بفصحاء أهل الحاضرة توقف عند منتصف المئة الثانية،

---

(١) الاحتجاج بالشعر في اللغة : ٨٧ و ٨٨.

(٢) ينظر: من قضايا المعجمية العربية المعاصرة : ١٧،(مقال) للدكتور عفيف عبد الرحمن، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني، العدد الخامس والثلاثون، السنة الثانية عشرة، تموز، ١٩٨٨م.

(٣) ينظر: المصدر نفسه : الصحيفة نفسها.

(٤) البيان والتبيين: ١٠٦/١، للجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق: د. درويش جويدي، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

ثم ذكر رأيا آخر قال به المتأخرون يبيح الاحتجاج بفصحاء أهل الحاضرة إلى نهاية المئة الثانية[1]. وهو ما اشرنا إليه أنفا.

وبعد ذلك التحديد يمكن القول ان كلام اهل البادية بعد القرن الرابع يعد مولدا لا يحتج به، أما قبل ذلك فانه يعد فصيحا باجماع علماء اللغة، ومن أمثلة ما عد فصيحا، ما اثبته ابن دريد في (الجمهرة)، والازهري في (التهذيب) ، والجوهري في (الصحاح).

ونجد بعض المعجميين من مد زمن الاحتجاج بكلام الاعراب الى ما بعد القرن الرابع، متجاوزا الحدود الزمنية التي وضعت. فالزمخشري – وهو ابن القرن السادس – اتخذ من كلام الاعراب الذين عاصرهم مصدرا من مصادر معجمه (أساس البلاغة) ((إيمانا منه أن[2] السليقة اللغوية ما زالت قائمة في البوداي، مادام مطلبه منها اللفظ المفرد والمعنى))[3].

وقد عد ما فعله الزمخشري ثورة على التقاليد التي اجترها المعجميون، لاحقا عن سابق، إذ اتخذ مقياس الصواب أساسا اعتمد عليه؛ لان الغلط قد انتشر ليس في الحضر وحده، بل في البدو ايضا. فهناك من اللغويين من اشار الى ان لغة البدو قد فقدت قيمتها بوصفها مثلا أعلى للاستعمال اللغوي، ليس فيما جاوز القرن الرابع فقط، بل شمل ايضا القرن الرابع، فابن جني– وهو ابن هذا القرن – نراه يصحب الاعرابي (أبا عبد الله) ليمتحنه لا ليأخذ عنه، فهو ناقد لا سامع، والدليل انه خصص بابا في كتابه (الخصائص)، سماه (في اغلاط العرب)[4].

ويبدو أن المعجميين بمدهم زمن الاحتجاج، يختلفون عن النحويين الذين تشددوا في ذلك كثيرا، فجعلوا آخر القرن الثاني نهاية لزمن الاحتجاج، سواء أكان في البادية، أم في الحاضرة. ولعلهم مصيبون – اعني النحويين – لان النحو ما هو الا ((قواعد استنبطت من نتاج عصور الاحتجاج))[5]، وهو اكثر عرضة للتحريف من الدلالة والمعجم.

---

[1] ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة : ٨٣.

[2] كذا، والصواب (بأن).

[3] المعجم العربي: ١٧٠/١، د. حسين نصار.

[4] ينظر: الخصائص : ٢٧٣/٣ – ٢٨٢.

[5] الاحتجاج بالشعر في اللغة : ١٠١.

ثانيا: المعيـــار المكانـــي

قلنا، أنفا، إن العلماء اعتمدوا في احتجاجهم بالشعر على المعيار الزمني فقط، من غير أن يراعى معه المعيار المكاني. أما النثر فقد اعتمدوا فيه على المعيارين الزمني والمكـاني، فهم يختلفون في الفصيح منه، وغير الفصيح، ويضعون قوائم بأسماء القبائل التي يصح أخـذ النثر عنها[١].

وفي ضوء هذا المعيار يحكم على صحة المادة اللغوية اعتمادا على طبيعة البيئة التي تحكى فيها، مما يعني ان الفصاحة مرتبطة بالبيئة ارتباطا وثيقا، ونحن في الكلام على هـذا المعيار لابد من مناقشة ما يسمى (السليقة اللغوية)، إذ اختلف العلمـاء فـي كنههـا، قـدماء ومحدثون.

فالقدماء ربطوا السليقة بالبداوة حينا، وبالجنس العربي حينا آخر.

ففي الجانب الأول، نجدهم قد ميزوا بين لغة البدو ولغة الحضر ((فكلما كانت القبيلـة بدوية، أو أقرب إلى حياة البداوة كانت لغتها افصح، والثقة بها أكثر. وكلما كانت متحضـرة أو أقرب إلى حياة الحاضرة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة، ولذلك تجنبوا الأخذ عنها))[٢].

أما في الجانب الاخر، فقد ربطوا السليقة بالجنس العربي، ((أي أنـه لا يتصـور أن يسيطر على اللغة العربية غير العربي، كما انه لا يمكن أن يتقنها اتقان العربي لها. وهم بذلك كأنما تصوروا أن هناك امرا سحريا هو سر السليقة، ذلك هو الجنس، فكان الامهات يرضـعن السليقة في البانهن، وكأن تلك السليقة تتصل اتصـالا وثيقـا برمـالهم وآثـارهم وأطلالهـم ودمنهم))[٣]. فلم يتورعوا عن الاخذ عن صبيان العرب والرواية عنهم، فقد قال ابـن دريـد: ((أخبرنا عبد الرحمن عن عمه الاصمعي قال: سمعت صبية بحمى ضرية يتراجزون، فوقفت وصدوني عن حاجتي، واقبلت أكتب ما أسمع إذ أقبل شيخ فقال: أتكـتب كـلام هـؤلاء

---

[١] ينظر: فصول في فقه اللغة : ١٠٣.

[٢] البحث اللغوي عند العرب : ٣٧.

[٣] فصول في فقه اللغة : ٩٥.

الاقزام الأدناع ؟))[1]. وانهم لم يروا في شعر من عد مولدا، كابي تمام والمتنبي (٣٥٤ هـ)، ما يؤهلهم لتلك السليقة اللغوية، التي أباحت لهم الاخذ عن الصبيان، وترك هؤلاء الفصحاء.

وقد وصف الدكتور إبراهيم أنيس منهجهم هذا بالدكتاتورية والمغالاة في الحرص على العربية والاعتزاز بها، وكأنهم لم يسمعوا بما روي من أن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) حين سمع أن منافقا نال من عروبة (سلمان الفارسي) دخل المسجد مغضبا، وقال: (ايها الناس إن الرب واحد، والاب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي)[2].

أما المحدثون، فيرون ان السليقة لا تعدو ان تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة فالمتكلم لا يكاد يشعر بخصائص كلامه، من حيث الأصوات، وأبنية الألفاظ ، وتراكيب الجمل. فهو يؤدي الكلام بصورة آلية، من غير أن يكون له أي اختيار في هذه النواحي، بل تصدر عنه بلا تكلف أو تعمد، وانما بحسب ما سمع في صغره ممن حوله من الكبار، وعلى المنهج الذي يسلكونه نفسه. وهذه مرحلة تكون متأخرة يسبقها التقليد، أي إن اكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المران، ولا يقال للطفل في أثناء تعلمه لغة أهله وقبل أن يسيطر عليها انه يتعلمها بالسليقة، فلا وراثة بالسليقة، وانما الامر كله منوط بالاكتساب والتقليد[3].

ونجد من المحدثين من تابع القدماء في هذا الميدان، ولكن باسلوب آخر، فقد قال مصطفى صادق الرافعي، في معرض حديثة عن الفصاحة: ((إنها عمل تبتدئة الطبيعة وتكمله الوراثة، فإن وقع اختلال في أحد العاملين وقع مثله في العمل على نسبة واحدة))[4].وهو في رأيه هذا يوافق أقرانه في جانب واحد، هو ان الفصاحة تبدأ بالتقليد والاكتساب، ولكن يخالفهم في قوله إن الوراثة عامل مكمل للطبيعة في استكمال الفصاحة.

---

[1] المزهر : ١/١٤٠.

[2] ينظر: من اسرار اللغة : ٢١.

[3] ينظر: محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة: ١٤، للدكتور ابراهيم انيس، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩ – ١٩٦٠م.

[4] تاريخ آداب العرب : ١/١٢٦.

إن اللغويين حين ربطوا الفصاحة بالبداوة لم يساووا بين القبائل التي استوطنت البادية فرفضوا الاخذ عن المتطرفة منها التي سكنت حدود الجزيرة العربيـــة؛ لمجــاورتهم الامـــم الاعجمية، اذ قال الفارابي: ((وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم))[1]. أما التي ســكنت أواســط الجزيرة فعنها أخذت اللغة، وقد ذكرهم الفارابي بقوله: ((الذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس، وتميم، وأسد، فإن هــؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين))[2].

وجعل بعض المحدثين قول الفارابي الاول اساسا لمعيار جديد، أعاره عنوان (المعيار القبلي المكاني)[3] ، ولا داعي لهذا التفريق؛ لأن الاساس فيهما واحد هو المكان.

وقد أشار الدكتور رياض زكي قاسم إلى أن اللغويين جعلوا الاخذ في مجموعتين:

الاولى : المجموع الشرقية ، التي كانت سائدة شرقي الجزيرة وأواسطها ، وتشــتمل على قبائل تميم ، وقيس ، وأسد ، وطيئ ، وهي التي يعبر عنها القدماء أحيانا بلغة نجد.

والثانية: المجموعة الغربية ، وكانت سائدة غربي الجزيرة بين القبائل الحجازية تلــك التي كانت تقيم في المدينة وما حولها ، ومكة وما حولها ، وهي التي اصطلح القــدماء علـــى تسميتها لغة الحجاز [4] ، وتضم لغة قريش ، التي عدت أفصح لغات العرب ، قال ابن فارس: ((أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لاشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيــامهم ومحـــالهم ان قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة))[5]؛ لانها كانت تختار من كلام العرب الوافــدين أليها ما حسن واستقام ، فاجتمع ماتخيروا من تلك القبائل الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعــوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب [6] .

---

[1] المزهر : ٢١٢/١.

[2] المصدر نفسه: ٢١١/١.

[3] ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة: ٧٥ و ٧٦.

[4] ينظر:المعجم العربي : ١٦٣.

[5] الصاحبي : ٣٣.

[6] ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة : ٧٥و ٧٦.

وقد أصبح قول ابن فارس المتقدم اساسا اعتمد عليه من جعل المعايير اربعة واضاف معيارا جديدا، سماه (المعيار القبلي) ، وهو مصيب في هذا ؛ لأن علماء اللغة – في أحـــايين كثيرة – جعلوا القبيلة متكأ استندوا اليه في قبول اللغة أو رفضها ، وإن كانت بعيدة عن البداوة ومصداق هذا عدهم لغة قريش أفصح اللغات.

إن إجماع علمائنا على فصاحة لغة قريش لأمر يثير الانتباه؛ لأن قريشا كانت تســكن مكة وما حولها ، وهم من أهل المدر – أي انهم من القبائل الحضرية – وهم تجار ، والتجارة تفسد اللغة ، وهذا مما عيب على غيرها من اللغات، وامسى سببا في رفضها، كلغة اليمن [١].

ويبدو مما سبق ان ما قرره اللغويون بشأن هذا المعيار يقع في دائرة التنـــاقض ، إذ إنهم رفضوا الأخذ عن اهل الحضر ، ثم جعلوا لغة قريش – وهي لغة حضـــرية – أفصـــح اللغات ، وجعلوا القرب منها مقياسا للفصاحة ((فكلما قربت القبيلة من بيئة قريش كانت أقرب الى الفصاحة ، والأخذ بكلامها))[٢] .

ولحل ذلك التناقض لابد من التفريق بين سلامة اللغة وفصاحتها، فقد ذكر أحمد أمين: ((إن سلامة اللغة كانت في بني سعد خيرا مما في قريش؛ لأنهم أهل وبر، وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالناس ، وعلى العكس من ذلك قريش ، فهم أهل مدر وكثير منهم كان يرحل الى الشام ومصر وغيرها، ويتاجر مع أهلها، ويسمع لغتهم . فهم من سلامة اللغـــة ينطبـــق عليهم ما انطبق على غيرهم ، ممن خالط الامم الاخرى ، ولكن من ناحية الفصاحة فصحاء ، وأعني بالفصاحة قوة التعبير عما في نفوسهم))[٣] .

ويبدو ان الامر الذي حدا اللغويين على اتخاذ لغة قريش مقياسا للفصاحة ما اعتقـــده اولئك من ان لغة القرآن هي لغة قريش ، ولما كان القران الانموذج الاول للفصـــاحة، فإنهـــا استمدت تلك المنزلة من القران. فالفصاحة على وفق هذا الاعتقاد تعني ما بلغه قـــريش مـــن رقي وليس ما حفظته من خصائص البداوة.

---

[١] ينظر: ضحى الاسلام : ٢/ ٢٤٧.

[٢] فصول في فقه اللغة : ١٠٥.

[٣] ضحى الاسلام : ٢/ ٢٤٧.

وقد يحلو للكثيرين من دارسي العربية ان يجعل الفصحى هي لهجة قريش ، مـدعين ان العرب أخذوا هذه اللغة عن تلك القبيلة العظيمة، وهي دعوة لا اساس لها من الصحة ، ولا تقوم على حجج مقنعة ، وقد اثبت الدكتور رياض زكي قاسم بطلانها ببعض المسائل التي عدت من المسلمات، ومنها :

١- ان القرآن نزل بلسان عربي مبين ، ولم ينزل بلسان قرشي.

٢- ان القرآن نزل على سبعة احرف وتعددت قراءاته ... وفي اكثر هذه القراءات ظواهر لغوية لم تشتمل عليها لهجة قريش.

٣- كان للهجة قريش من الخصائص مالم يشع في الاستعمال العربي ، كتحقيق الهمزة في الفصحى ، وهو اشيع من تسهيلها . فإذا عرفنا ان قريشا كانت تسهل الهمزة ، تبين لنا ان اللغة الفصحى المشتركة ليست لهجة قريش فقط ، بل هي لغة العرب جميعا.

٤- إن النصوص الأدبية الجاهلية التي بين ايدينا تكاد تكون خالصة لقبائل غير قريش ، بل إننا لم نسمع عن شاعر جاهلي قرشي فحل[١] .

وختاما، يمكن القول ان التحديدات القبلية التي وضعها اللغويون ادت الى اغفال مفردات واستعمالات كثيرة ، اذ ان ترك الاخذ عن قبيلة باسرها ، او عن اهل منطقة باسرها فيه مالا يخفى من التمحل ، واهدار ما يمكن ان يكون هؤلاء وهؤلاء استعملوه من التراكيب والصيغ ، والاساليب الصحيحة الفصيحة [٢] . ودليل ذلك ان القبائل التي اعتمد عليها اللغويون في المعجمات ، وعدوها اساسا للاحتجاج، هي اقل من تلك التي تعد فصيحة من خلال ما استعمله القرآن من لهجاتها . فلماذا تستبعد لغات هذه القبائل حين ينظر اليها على انها لهجات تطرفت في السكن ، ويؤخذ بها حين يستشهد بما استعمل القرآن من الفاظها [٣].

ولو استبدل بهذا الحظر العام حظر انتقائي يستبعد من الاداء اللغوي لتلك القبائل والمناطق ما يشذ عن طبيعة الصيغ والاستعمالات ، لاستدرك كثير مما فات المعجمات [٤].

---

(١) المعجم العربي : ١٦٧و١٦٨.

(٢) ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة : ٧٧ و ٧٨.

(٣) ينظر: الدراسات اللغوية عند العرب : ٣٣٠ و ٣٣١.

(٤) ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة : ٧٧ و٧٨.

وبمعنى اخر يجب ان يكون معيار الصحة اساسا في قبول المادة اللغوية او رفضـــها وكذلك يجب ان تكون النظرة لمادة اللغة ورواتها قائمة على اسس موضـــوعية خاليـــة مـــن الاعتبارات الشخصية التي يغذيها التعصب والمنافسة [١].

[١] ينظر: الرواية والاستشهاد باللغة : ٢٥١.